أَنَّ رَسولَ اللّهِ ﷺ قَالَ: «احْرِصْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ، .....

نفسه انتقاص للمؤمن المفضل عليه، فإذا قيل: «وفي كل خير» رفع من شأنه، ونظيره قوله تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَٰتَلَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُوا۟ مِنۢ بَعْدُ وَقَٰتَلُوا۟ ۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [الحديد: ١٠].

قوله: «احرص على ما ينفعك»: الحِرْصُ: بذل الجهد لنيل ما ينفع من أمر الدين أو الدنيا.

وأفعال العباد بحسب السَّبْر والتَّقْسِيم لا تخلو من أربع حالات:

١ ـ نافعة، وهٰذه مأمور بها.

٢ ـ ضارة، وهٰذه محذر منها.

٣ ـ فيها نفع وضرر.

٤ ـ لا نفع فيها ولا ضرر، وهٰذه لا يتعلق بها أمر ولا نهي، لٰكن الغالب أن لا تقع إلا وسيلة إلى ما فيه أمر أو نهي، فتأخذ حكم الغاية؛ لأن الوسائل لها أحكام المقاصد.

فالأمر لا يخلو من نفع أو ضرر؛ إما لذاته أو لغيره، فحديثنا العام قد لا يكون فيه نفع ولا ضرر، لٰكن قد يتكلم الإنسان ويتحدث لأجل إدخال السرور على غيره فيكون نفعًا، ولا يمكن أن تجد شيئًا من الأمور والحوادث ليس فيها نفع ولا ضرر؛ إما ذاتي، أو عارض إنما ذكرناه لأجل تمام السبر والتقسيم. والعاقل يشح بوقته أن يصرفه فيما لا نفع فيه ولا ضرر، قال النبي ﷺ: «**من كان يؤمن بالله واليوم الآخر؛ فليقل خيرًا أو ليصمت**»[1].

(١) أخرجه: البخاري في (الأدب، باب حق الضيف، ٤/ ١١٦)، ومسلم في (الإيمان، باب الحث على إكرام الجار، ١/ ٦٨)؛ عن أبي هريرة رضي الله عنه.

وَاسْتَعِنْ بِاللّهِ، .....

واتصال هٰذه الجملة بما قبلها ظاهر جدًّا؛ لأن من القوة الحرص على ما ينفع. و«ما»: اسم موصول بفعل (ينفع)، والاسم الموصول يحول بصلته إلى اسم فاعل، كأنه قال: احرص على النافع، وإنما قلت ذلك لأجل أن أقول: إن النبي ﷺ أمرنا بالحرص على النافع، ومعناه أن نقدم الأنفع على النافع؛ لأن الأنفع مشتمل على أصل النفع وعلى الزيادة، وهٰذه الزيادة لا بد أن نحرص عليها؛ لأن الحكم إذا علق بوصف كان تأكد ذٰلك الحكم بحسب ما يشتمل عليه تأكد ذٰلك الوصف، فإذا قلت: أنا أكره الفاسقين كان كل من كان أشد في الفسق إليك أكره؛ فنقدم الأنفع على النافع لوجهين:

١ ـ أنه مشتمل على النفع وزيادة.

٢ ـ أن الحكم إذا عُلِّق بوصف كان تأكد ذٰلك الحكم بحسب تأكد ذٰلك الوصف وقوته.

ويؤخذ من الحديث وجوب الابتعاد عن الضار؛ لأن الابتعاد عنه انتفاع وسلامة لقوله: «**احرص على ما ينفعك**».

قوله: «**واستعن بالله**»: الواو تقتضي الجمع؛ فتكون الاستعانة مقرونة بالحرص، والحرص سابق على الفعل؛ فلا بد أن تكون الاستعانة مقارنة للفعل من أوّله.

والاستعانة: طلب العون بلسان المقال؛ كقولك: «اللهم أعني، أو: لا حول ولا قوة إلا بالله» عند شروعك بالفعل. أو بلسان الحال، وهي أن تشعر بقلبك أنك محتاج إلى ربك ـ عز وجل ـ أن يعينك على هٰذا الفعل، وأنه إن وكلك إلى نفسك وكلك إلى ضعف وعجز وعورة. أو طلب

وَلاَ تَعْجِزَنْ، .....

العون بهما جميعًا، والغالب أن من استعان بلسان المقال؛ فقد استعان بلسان الحال.

ولو احتاج الإنسان إلى الاستعانة بالمخلوق كحمل صندوق مثلاً؛ فهٰذا جائز، ولٰكن لا تشعر نفسك أنها كاستعانتك بالخالق، وإنما عليك أن تشعر أنها كمعونة بعض أعضائك لبعض، كما لو عجزت عن حمل شيء بيد واحدة؛ فإنك تستعين على حمله باليد الأخرى، وعلى هٰذا؛ فالاستعانة بالمخلوق فيما يقدر عليه كالاستعانة ببعض أعضائك، فلا تنافي قوله ﷺ: «**استعن بالله**».

قوله: «ولا تعجزَنْ»: فعل مضارع مبني على الفتح لاتصاله بنون التوكيد الخفيفة، و«**لا**»: ناهية، والمعنى: لا تفعل فعل العاجز من التكاسل وعدم الحزم والعزيمة، وليس المعنى: لا يصيبك عجز؛ لأن العجز عن الشيء غير التعاجز؛ فالعجز بغير اختيار الإنسان؛ ولا طاقة له به، فلا يتوجَّه عليه نهي، ولهٰذا قال النبي ﷺ: «**صل قائمًا، فإن لم تستطع؛ فقاعدًا، فإن لم تستطع؛ فعلى جنب**»[1]. فإذا اجتمع الحرص وعدم التكاسل؛ اجتمع في هٰذا صدق النية بالحرص والعزيمة بعدم التكاسل. لأن بعض الناس يحرص على ما ينفعه ويشرع فيه، ثم يتعاجز ويتكاسل ويدعه، وهٰذا خلاف ما أمر به الرسول ﷺ، فما دمت عرفت أن هٰذا نافع؛ فلا تدعه، لأنك إذا عَجَّزت نفسك خسرت العمل الذي عملت ثم عَوَّدت نفسك التكاسل والتَّدني من حال النشاط والقوة إلى حال العجز والكسل، وكم من إنسان بدأ العمل ـ ولا سيما النافع ـ ثم أتاه الشيطان

(١) أخرجه: البخاري في (تقصير الصلاة، باب إذا لم يطق قاعدًا صلى على جنب، ١/ ٣٤٨)؛ عن عمران بن حصين رضي الله عنه.

وَإِنْ أَصَابَكَ شَيْءٌ؛ فَلَا تَقُلْ: لَوْ أَنِّي فَعَلْتُ كَذَا؛ لَكَانَ كَذا وكَذا،

فثبطه؟! لٰكن إذا ظهر في أثناء العمل أنه ضار؛ فيجب عليه الرجوع عنه؛ لأن الرجوع إلى الحق خير من التمادي في الباطل.

وذُكر في ترجمة الكِسائي أنه بدأ في طلب علم النحو ثم صعب عليه، فوجد نملة تحمل طعامًا تريد أن تصعد به حائطًا، كلما صعدت قليلاً سقطت، وهٰكذا حتى صعدت؛ فأخذ درسًا من ذٰلك، فكابد حتى صار إمامًا في النحو.

قوله: «إن أصابك شيء فلا تقل: لو أني فعلت كذا لكان كذا وكذا»: هٰذه هي المرتبة الرابعة مما ذكر في هٰذا الحديث العظيم إذا حصل خلاف المقصود.

فالمرتبة الأولى: الحرص على ما ينفع.

والمرتبة الثانية: الاستعانة بالله.

والمرتبة الثالثة: المُضِيّ في الأمر والاستمرار فيه وعدم التعاجز. وهٰذه المراتب إليك.

المرتبة الرابعة: إذا حصل خلاف المقصود؛ فهٰذه ليست إليك، وإنما هي بقدر الله، ولهٰذا قال: «**وإن أصابك**...»؛ فَفَوِّض الأمر إلى الله تعالى.

قوله: «وإن أصابك شيء»: أي: مما لا تحبه ولا تريده ومما يعوقك عن الوصول إلى مرامك فيما شرعت فيه من نفع.

فمن خالفه القدر ولم يأت على مطلوبه لا يخلو من حالين:

الأولى: أن يقول: لو لم أفعل ما حصل كذا.

وَلٰكِنْ قُلْ: قَدَرُ اللّٰهُ وَمَا شَاءَ فَعَلَ؛ .....

الثاني: أن يقول: لو فعلت كذا لأمر لم يفعله لكان كذا.

مثال الأول قول القائل: لو لم أسافر ما فاتني الربح.

ومثال الثاني أن يقول: لو سافرت لربحت.

وذكر النبي ﷺ الثاني دون الأول؛ لأن هٰذا الإنسان عامل فاعل؛ فهو يقول: لو أني فعلت الفعل الفلاني دون هٰذا الفعل لَحَصَّلت مطلوبي، بخلاف الإنسان الذي لم يفعل وكان موقفه سلبيًّا من الأعمال.

قوله: «كذا»: كناية عن مبهم، وهي مفعول لفعلت.

قوله: «لكان كذا»: فاعل كان، والجملة جواب لو.

قوله: «قدر الله»: خبر لمبتدأ محذوف؛ أي: هٰذا قدر الله. وقدر بمعنى مقدور؛ لأن قدر الله يطلق على التقدير الذي هو فعل الله، ويطلق على المقدور الذي وقع بتقدير الله، وهو المراد هنا؛ لأن القائل يتحدث عن شيء وقع عليه، فقدر الله أي مقدوره، ولا مُقَدَّر إلا بتقدير؛ لأن المفعول نتيجة الفعل.

والمعنى: إن هٰذا الذي وقع قدر الله وليس إليّ، أما الذي إليّ فقد بذلت ما أراه نافعًا كما أمرت، وهٰذا فيه التسليم التام لقضاء الله ـ عز وجل ـ، وأن الإنسان إذا فعل ما أمر به على الوجه الشرعي؛ فإنه لا يلام على شيء، ويُفوِّض الأمر إلى الله.

قوله: «وما شاء فعل»: جملة مصدرة بـ«ما» الشرطية، و«**شاء**»: فعل الشرط، وجوابه: «**فعل**»؛ أي: ما شاء الله أن يفعله فَعَلَه؛ لأن الله لا راد لقضائه ولا مُعَقِّب لحكمه، قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَحۡكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكۡمِهِۦۚ وَهُوَ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ﴾ [الرعد: ٤١]، وقد سبق ذكر قاعدة، وهي أن كل

فإنَّ (لَوْ) تَفْتَحُ عَمَلَ الشَّيْطَانِ»[(١)].

فعل الله تعالى مُعلَّق بالمشيئة؛ فإنه مقرون بالحكمة، وليس شيء من فعله معلقًا بالمشيئة المجردة؛ لأن الله لا يُشَرِّع ولا يفعل إلا لحكمة، وبهٰذا التقرير نفهم أن المشيئة يلزم منها وقوع المشاء، ولهٰذا كان المسلمون يقولون: ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن.

وأما الإرادة ووقوع المراد؛ ففيه تفصيل: فالإرادة الشرعية لا يلزم منها وقوع المراد، وهي التي بمعنى المحبة، قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ﴾ [النساء: ٢٧] بمعنى يحب، ولو كانت بمعنى يشاء لتاب الله على جميع الناس. والإرادة الكونية يلزم منها وقوع المراد؛ كما قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُوا۟ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ [البقرة: ٢٥٣].

قوله: «فإن لو تفتح عمل الشيطان»: «لو»: اسم إن قصد لفظها؛ أي: فإن هٰذا اللفظ يفتح عمل الشيطان.

وعمله: ما يلقيه في قلب الإنسان من الحسرة والندم والحزن؛ فإن الشيطان يحب ذٰلك، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلنَّجْوَىٰ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ لِيَحْزُنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَيْسَ بِضَآرِّهِمْ شَيْـًٔا إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [المجادلة: ١٠]، حتى في المنام يريه أحلامًا مخيفة لِيُعكِّر عليه صفوه ويُشَوِّش فكره، وحينئذ لا يتفرغ للعبادة على ما ينبغي، ولهٰذا نهى النبي ﷺ عن الصلاة حال تشوش الفكر؛ فقال ﷺ: **«لا صلاة بحضرة طعام، ولا هو يدافعه الأخبثان»**[(٢)]، فإذا رضي الإنسان بالله ربًّا، وقال: هٰذا قضاء الله وقدره، وأنه لا بد أن يقع؛ اطمأنت نفسه وانشرح صدره.

---

(١) أخرجه: مسلم في (القدر، باب في الأمر بالقوة وترك العجز، ٤/ ٢٠٥٢)؛ عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه: مسلم في (المساجد، ١/ ٣٩٣).

.....

* **ويستفاد من الحديث:**

١ ـ إثبات المحبة لله ـ عز وجل ـ؛ لقوله: «**خير وأحب**».

٢ ـ اختلاف الناس في قوة الإيمان وضعفه؛ لقوله: «**المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف**».

٣ ـ زيادة الإيمان ونقصانه؛ لأن القوة زيادة والضعف نقص، وهٰذا هو القول الصحيح الذي عليه عامة أهل السنة. وقال بعض أهل السنة: يزيد ولا ينقص؛ لأن النقص لم يرد في القرآن، قال تعالى: ﴿وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِيمَٰنًا﴾ [المدثر: ٣١]، وقال تعالى: ﴿لِيَزْدَادُوٓاْ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ﴾ [الفتح: ٤]. والراجح القول الأول؛ لأنه من لازم ثبوت الزيادة ثبوت النقص عن الزائد، وعلى هٰذا يكون القرآن دالاً على ثبوت نقص الإيمان بطريق اللزوم، كما أن السنة جاءت به صريحة في قوله ﷺ: «**ما رأيت من ناقصات عقل ودين أذهب للُبّ الرجل الحازم من إحداكن**»[1]؛ يعني: النساء.

والإيمان يزيد بالكمية والكيفية؛ فزيادة الأعمال الظاهرة زيادة كمية، وزيادة الأعمال الباطنة كاليقين زيادة كيفية، ولهٰذا قال إبراهيم عليه السلام: ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾ [البقرة: ٢٦٠].

والإنسان إذا أخبره ثقة بخبر، ثم جاء آخر فأخبره نفس الخبر؛ زاد يقينه، ولهٰذا قال أهل العلم: إن المتواتر يفيد العلم اليقيني، وهٰذا دليل

(١) أخرجه: مسلم في (الإيمان، باب نقصان الإيمان، ١/ ٨٦)؛ عن ابن عمر رضي الله عنه. وأخرجه: البخاري (٣٠٤)، ومسلم (٨٠)؛ عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

.....

على تفاوت القلوب بالتصديق، وأما الأعمال؛ فظاهر، فمن صلى أربع ركعات أزيد ممن صلى ركعتين.

٤ ـ أن المؤمن وإن ضعف إيمانه فيه خير؛ لقوله: «**وفي كل خير**».

٥ ـ أن الشريعة جاءت بتكميل المصالح وتحقيقها؛ لقوله: «**احرص على ما ينفعك**»، فإذا امتثل المؤمن أمر الرسول ﷺ؛ فهو عبادة وإن كان ذٰلك النافع أمرًا دنيويًا.

٦ ـ أنه لا ينبغي للعاقل أن يمضي جهده فيما لا ينفع؛ لقوله: «**احرص على ما ينفعك**».

٧ ـ أنه ينبغي للإِنسان الصبر والمصابرة؛ لقوله: «**ولا تعجزَنْ**».

٨ ـ أن ما لا قدرة للإِنسان فيه فله أن يحتج عليه بالقدر؛ لقوله: «**ولٰكن قل: قدّر الله وما شاء فعل**»، وأما الذي يمكنك؛ فليس لك أن تحتج بالقدر.

وأما محاجة آدم وموسى حيث لام موسى آدم عليهما الصلاة والسلام؛ وقال له: «**لماذا أخرجتنا ونفسك من الجنة؟ فقال: أتلومني على شيء قد كتبه الله علي**»[1]؛ فهٰذا احتجاج بالقدر. فالقدرية الذين ينكرون القدر يُكذِّبون هٰذا الحديث؛ لأن من عادة أهل البدع أن ما خالف بدعتهم إن أمكن تكذيبه كَذَّبوه، وإلا حَرَّفوه، ولٰكن هذا الحديث ثابت في «الصحيحين» وغيرهما.

وقال شيخ الإِسلام ابن تيمية: إن هٰذا من باب الاحتجاج بالقدر

(١) أخرجه: البخاري في (القدر، باب تحاج آدم وموسى، ٤/ ٢١٢)، ومسلم في (القدر، باب حجاج آدم وموسى، ٤/ ٢٠٤٤)؛ عن أبي هريرة رضي الله عنه.

.....

على المصائب لا على المعائب؛ فموسى لم يحتج على آدم بالمعصية التي هي سبب الخروج، بل احتج بالخروج نفسه.

معناه: أن فِعْلَك صار سببًا لخروجنا، وإلا؛ فإن موسى عليه الصلاة والسلام أبعد من أن يلوم أباه على ذنب تاب منه واجتباه ربه وهداه، وهٰذا ينطبق على الحديث.

وذهب ابن القيم رحمه الله إلى وجه آخر في تخريج هٰذا الحديث، وهو أن آدم احتج بالقدر بعد أن مضى وتاب من فعله، وليس كحال الذين يحتجون على أن يبقوا في المعصية ويستمروا عليها؛ فالمشركون لما قالوا: ﴿لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا﴾ [الأنعام: ١٤٨] كَذَّبهم الله؛ لأنهم لا يحتجون على شيء مضى ويقولون: تبنا إلى الله؛ ولٰكن يحتجون على البقاء في الشرك.

٩ ـ أن للشيطان تأثيرًا على بني آدم؛ لقوله: «**فإن لو تفتح عمل الشيطان**»، وهٰذا لا شك فيه، ولهٰذا قال النبي ﷺ: «**إن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم**»[(١)].

فقال بعض أهل العلم: إن هٰذا يعني الوساوس التي يلقيها في القلب فتجري في العروق.

وظاهر الحديث: أن الشيطان نفسه يجري من ابن آدم مجرى الدم، وهٰذا ليس ببعيد على قدرة الله ـ عز وجل ـ، كما أن الروح تجري مجرى

(١) أخرجه: البخاري في (الاعتكاف، باب زيارة المرأة زوجها في اعتكافه، ٢/ ٦٨)، ومسلم في (السلام، باب بيان أنه يستحب لمن رؤي خاليًا بامرأة، ٤/ ١٧١٢)؛ عن صفية بنت حيي رضي الله عنها.

● فيهِ مَسائِلُ:

الأولى: تَفْسِيرُ الآيَتَيْنِ فِي آلِ عِمْرَانَ.

الدم، وهي جسم، إذا قبضت تُكفَّن وتُحنَّط وتصعد بها الملائكة إلى السماء.

ومن نعمة الله أن للشيطان ما يضاده، وهي لَمَّة المَلَك؛ فإن للشيطان في قلب ابن آدم لمة وللملك لمة، ومن وفِّق غلبت عنده لمة الملك لمة الشيطان، فهما دائمًا يتصارعان نفس مطمئنة ونفس أمّارة بالسوء وأما النفس اللوّامة فهي وصف للنفسين جميعًا.

١٠ ـ حسن تعليم النبي ﷺ حين قرن النهي عن قول «لو» ببيان علته؛ لِتَتَبيَّن حكمة الشريعة، ويزداد المؤمن إيمانًا وامتثالاً.

* * *

فيه مسائل:

● **الأولى: تفسير الآيتين في آل عمران**: وهما:

الأولى: ﴿ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ لِإِخْوَٰنِهِمْ وَقَعَدُوا۟ لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا۟﴾.

الثانية: ﴿يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا﴾؛ أي: ما أُخرجنا وما قُتلنا، ولٰكن الله تعالى أبطل ذٰلك بقوله: ﴿قُل لَّوْ كُنتُمْ فِى بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ﴾، والآية الأخرى: ﴿لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا۟﴾؛ فأبطل الله دعواهم هٰذه بقوله: ﴿فَٱدْرَءُوا۟ عَنْ أَنفُسِكُمُ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾؛ أي: إن كنتم صادقين في البقاء وأن عدم الخروج مانع من القتل؛ فادرؤوا عن أنفسكم الموت، فإنهم لن يسلموا من الموت، بل لا بد أن يموتوا، ولٰكن لو أطاعوهم وتركوا الجهاد؛ لكانوا على ضلال مبين.

الثانية: النَّهْيُ الصَّرِيحُ عَنْ قَوْلِ: (لَوْ)؛ إِذَا أَصَابَكَ شَيْءٌ.

الثالثة: تَعْلِيلُ المَسْأَلَةِ بِأَنَّ ذٰلِكَ يَفْتَحُ عَمَلَ الشَّيْطَانِ.

الرابعة: الإِرْشَادُ إِلَى الكَلامِ الحَسَنِ.

الخامسة: الأَمْرُ بِالحِرْصِ عَلَى مَا يَنْفَعُ مَعَ الاسْتِعَانَةِ بِاللّٰهِ.

السادسة: النَّهْيُ عَنْ ضِدِّ ذٰلِكَ، وَهُوَ العَجْزُ.

● **الثانية: النهي الصريح عن قول «لو» إذا أصابك شيء**: لقول الرسول ﷺ: «**فإن أصابك شيء؛ فلا تقل: لو أني فعلت كذا لكان كذا**».

● **الثالثة: تعليل المسألة بأن ذٰلك يفتح عمل الشيطان**: فالنهي عن قول «لو» علتها أنها تفتح عمل الشيطان وهو الوسوسة، فيتحسر الإِنسان بذٰلك ويندم ويحزن.

● **الرابعة: الإِرشاد إلى الكلام الحسن**: يعني قوله: «**ولٰكن قل: قَدَرُ الله وما شاء فعل**».

● **الخامسة: الأمر بالحرص على ما ينفع مع الاستعانة بالله**: لقوله ﷺ: «**احرص على ما ينفعك واستعن بالله**».

● **السادسة: النهي عن ضد ذٰلك، وهو العجز**: لقوله: «**ولا تعجزن**»، فإن قال قائل: العجز ليس باختيار الإِنسان، فالإِنسان قد يصاب بمرض فيعجز؛ فكيف نهى النبي ﷺ عن أمر لا قدرة للإِنسان عليه؟

أجيب: بأن المقصود بالعجز هنا التهاون والكسل عن فعل الشيء؛ لأنه هو الذي في مقدور الإِنسان.

* * *

بَابٌ
النَّهْيُ عَنْ سَبِّ الرِّيحِ

.....

المؤلف رحمه الله أطلق النهي ولم يفصح: هل المراد به التحريم أو الكراهة، وسيتبين إن شاء الله من الحديث.

قوله: «الريح»: الهواء الذي يُصرِّفه الله ـ عز وجل ـ، وجمعه رياح. وأصولها أربعة: الشمال، والجنوب، والشرق، والغرب، وما بينهما يسمى النكباء؛ لأنها ناكبة عن الاستقامة في الشمال أو الجنوب أو الشرق أو الغرب. وتصريفها من آيات الله ـ عز وجل ـ؛ فأحيانًا تكون شديدة تقلع الأشجار وتهدم البيوت وتدفن الزروع ويحصل معها فيضانات عظيمة، وأحيانًا تكون هادئة، وأحيانًا تكون باردة، وأحيانًا حارة، وأحيانًا عالية، وأحيانًا نازلة؛ كل هٰذا بقضاء الله وقدره، ولو أن الخلق اجتمعوا كلهم على أن يصرفوا الريح عن جهتها التي جعلها الله عليها ما استطاعوا إلى ذٰلك سبيلًا، ولو اجتمعت جميع المكائن العالمية النَّفاثة لتوجِد هذه الريح الشديدة ما استطاعت إلى ذٰلك سبيلًا، ولٰكن الله ـ عز وجل ـ بقدرته يُصرِّفها كيف يشاء وعلى ما يريد؛ فهل يحق للمسلم أن يسب هٰذه الريح؟

الجواب: لا؛ لأن هٰذه الريح مُسَخَّرة مدبرة، وكما أن الشمس أحيانًا تضر بإحراقها بعض الأشجار، ومع ذٰلك لا يجوز لأحد أن يسبها؛ فكذٰلك الريح، ولهٰذا قال: **«لا تسبوا الريح»**.

* * *

عَنْ أُبَيِّ بنِ كَعْبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؛ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: **«لاَ تَسُبُّوا الرِّيحَ؛ فَإِذَا رَأَيْتُمْ مَا تَكْرَهُونَ؛ فَقُولُوا: اللَّهُمَّ إِنَّا نَسْأَلُكَ مِنْ خَيْرِ هٰذِهِ الرِّيحِ وخَيْرِ ما فيها وَخَيْرِ ما أُمِرَتْ بِهِ، وَنَعوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ هٰذِهِ الرِّيحِ** .....

قوله: «لا تسبوا الريح»: «لا»: ناهية، والفعل مجزوم بحذف النون، والواو فاعل، والريح مفعول به. والسَّب: الشتم، والعيب، والقدح، واللعن، وما أشبه ذٰلك، وإنما نهى عن سبها؛ لأن سب المخلوق سَبٌّ لخالقه، فلو وجدت قصرًا مبنيًّا وفيه عيب، فسببته؛ فهٰذا السب ينصب على من بناه، وكذٰلك سب الريح؛ لأنها مدبرة مسخرة على ما تقتضيه حكمة الله ـ عز وجل ـ. ولٰكن إذا كانت الريح مزعجة؛ فقد أرشد النبي ﷺ إلى ما يقال حينئذ في قوله: **«ولٰكن قولوا: اللهم إنا نسألك... إلخ»**.

قوله: «من خير هٰذه الريح»: الريح نفسها فيها خير وشر؛ فقد تكون عاصفة تقلع الأشجار وتهدم الديار وتفيض البحار والأنهار، وقد تكون هادئة تبرد الجو وتكسب النشاط.

قوله: «وخير ما فيها»: أي: ما تحمله؛ لأنها قد تحمل خيرًا؛ كتلقيح الثمار، وقد تحمل رائحة طيبة الشم، وقد تحمل شرًّا؛ كإزالة لقاح الثمار، وأمراض تضر الإنسان والبهائم.

قوله: «وخير ما أمرت به»: مثل إثارة السحاب وسوقه إلى حيث شاء الله.

قوله: «ونعوذ بك»: أي: نعتصم ونلجأ.

قوله: «من شر هٰذه الريح»: أي: شرها بنفسها؛ كقلع الأشجار، ودفن الزروع، وهدم البيوت.

وَشَرِّ مَا فِيهَا وَشَرِّ مَا أُمِرَتْ بِهِ». صَحَّحَهُ التِّرْمِذِيُّ(١).

● فيهِ مَسائِلُ:

الأولى: النَّهْيُ عَنْ سَبِّ الرِّيحِ.

قوله: «وشر ما فيها»: أي: ما تحمله من الأشياء الضارة، كالأنتان، والقاذورات، والأوبئة، وغيرها.

قوله: «وشر ما أمرت به»: كالإهلاك والتدمير، قال تعالى في ريح عاد: ﴿تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا﴾ [الأحقاف: ٢٥]، وتيبيس الأرض من الأمطار، ودفن الزروع، وطمس الآثار والطرق؛ فقد تؤمر بشر لحكمة بالغة قد نعجز عن إدراكها.

وقوله: «ما أمرت به»: هٰذا الأمر حقيقي؛ أي: يأمرها الله أن تهب ويأمرها أن تتوقف، وكل شيء من المخلوقات فيه إدراك بالنسبة إلى أمر الله، قال الله تعالى للأرض والسماء: ﴿ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾ [فصلت: ١١]، وقال للقلم: «**اكتب. قال: ربي وماذا أكتب؟ قال: اكتب ما هو كائن إلى قيام الساعة**»(٢).

فيه مسائل:

● **الأولى: النهي عن سب الريح**: وهٰذا النهي للتحريم؛ لأن سبها سب لمن خلقها وأرسلها.

---

(١) أخرجه: أحمد (٥/١٢٣)، والترمذي في (الفتن، باب ما جاء في النهي عن سب الريح، ٧/٣٣) ـ وقال: «حسن صحيح» ـ، والنسائي في «عمل اليوم والليلة» (٩٣٣، ٩٣٤)، وابن السني في «عمل اليوم والليلة» (٢٩٩)، والطحاوي في «المشكل» (١/٣٩٨).
وأخرجه: النسائي (٩٣٥، ٩٣٦، ٩٣٧)، والخرائطي في «مكارم الأخلاق» (ص٨٣)، والطحاوي في «المشكل» (١/٣٩٨)؛ عن أبي بن كعب موقوفًا.
والحديث له شاهد مرفوع عن أبي هريرة وعائشة رضي الله عنهما.

(٢) سيأتي تخريجه (ص٤٢٢).

الثانية: الإِرْشَادُ إِلَى الكَلَامِ النَّافِعِ إِذَا رَأَى الإِنْسَانُ مَا يَكْرَهُ.

الثالثة: الإِرْشَادُ إِلَى أَنَّهَا مَأْمُورَةٌ.

الرابعة: أَنَّهَا قَدْ تُؤْمَرُ بِخَيْرٍ وَقَدْ تُؤْمَرُ بِشَرٍّ.

● **الثانية: الإرشاد إلى الكلام النافع إذا رأى الإنسان ما يكره**: أي: منها، وهو أن يقول: «**اللهم إني أسألك من خيرها**...» الحديث، مع فعل الأسباب الحسية أيضًا؛ كالاتقاء من شرها بالجدران أو الجبال ونحوها.

● **الثالثة: الإرشاد إلى أنها مأمورة**: لقوله: «**ما أمرت به**».

● **الرابعة: أنها قد تؤمر بخير وقد تؤمر بشر**: لقوله: «**خير ما أمرت به، وشر ما أمرت به**».

والحاصل: أنه يجب على الإنسان أن لا يعترض على قضاء الله وقدره، وأن لا يسبَّه، وأن يكون مستسلمًا لأمره الكوني كما يجب أن يكون مستسلمًا لأمره الشرعي؛ لأن هٰذه المخلوقات لا تملك أن تفعل شيئًا إلا بأمر الله ـ سبحانه وتعالى ـ.

* * *